صراخ الهاوية

﴿ بقلم حضرة الكاتب الاديب فليكس افندي فارس ﴾

وكانت العساكر الانكليزية مجتمعة على قمة جبل الكوبا سائرة هنالك في احد المراكز المنيعة لا تحسب للحملة الافرنسية حسابا وكانت هذه عند قاعدة الجبل لا تدري الى اية حالة تصير الاحوال وقوادها يلاحظون برعب انهم في موقف حرج لا بد لهم من الخروج منه باية طريقة

ففي السابع والعشرين من شهر ايلول امر ناي قائد الحملة الافرنسية بجمع جيوشه وتنظيمها فصدحت الموسيقى علامة الهجوم وسارت العساكر مدفوعة بالحمية الجنسية تتسلق الجبل الوعر بدون مبالاة كأنها محمولة على جناح غير منظور يطير بها في الفضاء

وبعد ساعة وصل المارشال ناي الى قمة الجبل ووراءه اربعة آلاف مقاتل فذعر الانكليز اذ رأوا الاعداء على بعد عشرين قدماً منهم في حين لم يخطر لهم ذلك ببال . فتدفقت في الحال افواه المدافع لهيباً اصلى الافرنسيين ناراً حامية فردتهم لاول وهلة الى الوراء تبدد صفوفهم كرات الاعداء الهائلة فلم يعد يرى على قمة ذاك الجبل الشاهق غير قطع اعضاء بشرية تتطاير في الجو وصياح الويل يرن في آذان أصمها رعد البارود الذي كان دخانه الكثيف يحجب المعركة الى بعد عن الابصار . وكان كلما تبدد شمل صف من الافرنسيين ساقطاً تحت سيف المنية يتقدم غيره من ورائه ليقتبل رصاص الاعداء بصدره

ودامت الحال هكذا الى ان تبدد الدخان وهدأت اصوات المدافع فخشي الانكليز عاقبة الهجمات العنيفة وولوا مدبرين

فنادى المارشال ناي — هيوا الى الامام فتراكض العساكر بسرعة لاحقين بالاعداء عاملين بهم السيوف الحداد الى ان وصلوا الى منحدر الجبل للجهة المقابلة فارتجفت الارض تحت اقدامهم واهتزت الصخور زاحلة من مكانها وفتحت الارض فاها فتدحرجت العساكر باقل من لحظة في تلك الهاوية الهائلة فتراجع بقية المقاتلين الى الوراء سامعين برعب نداء رفاقهم الذي ملأ الآفاق بصراخ بفتت الاكباد وبعد مدة ساد السكوت فرجعت الاودية صدى عويل الشجعان الذين تواروا عن الابصار تحت ظلام هاوية لا قرار لها ومرت ساعات عديدة كان في اثنائها كل فريق بمعسكره واهي القوى يفكر برفقائه ولا يستطيع لتخليصهم عملاً

وعند الساعة التاسعة توجه رسول انكليزي من قبل ولانكتون الى معسكر الافرنسيس وطلب المسئول لدى المارشال ناي الداعي الفؤاد من حادثه الصباح فقدم الرسول بين يديه مقدماً له رسالة من عند مولاه فاخذها من يده وهو صامت لا يبدي حراكا كأنه مستفيق من نوم عميق ونادى ناي احد القواد قائلا

— اعدد فرقتك للسير معي الى الجبل

فانحنى هذا لامر سيده وبعد دقائق قليلة كانت الفرقة بقيادة المارشال سائرة بسرعة بين صخور الجبل الوعر واذا وصلوا الى قمته وجدوا ولانكتون بانتظارهم يحتاطه قواده وعلى محياه سيماء الاضطراب فبادر المارشال بالكلام قائلا

— سيدي المارشال لا اشك بانه يهمك امر الشجعان الذين قد تدهدهوا

في هاوية الكوبا هذا الصباح فلنتعاون لانه حيث تكون المصيبة يضمحل العداء ولعل بين رجالنا احياء فنخلصهم من ميتة هائلة . فتقدم ناي الى ولانكتون وصافحه قائلا

— فلنسرع اذاً قبل ان تصبح محاولتنا عبثاً

— كان من اللازم ان نفكر في ذلك من قبل ولكن الاضطراب جمد دمي في عروقي وهذه اول مرة في حياتي اشعر فيها بخوف هائل

وتقدم الجمع الى فوهة الهاوية وكانت الشمس محرقة تنعكس اشعتها على الصخور البيضاء وكان هواء بارد يخرج مدفوعاً من قلب تلك الهاية المفتوحة على خط مستقيم الى حيث لا يدرك

فاحنى المارشال ناي ولانكتون رأسيهما فارتجفت اعصابهما اذ شاهدا ذلك العمق الهائل الذي لا حد له سوى الظلام

فقال المارشال بهدوء — يلزم ان ندلي احد الجنود ليرى ما حل برفقاه فارتجف عسكر الانكليز اذ سمع هذا الكلام ولوحت وجهه صفرة الموت فادار ناي رأسه نحو جيشه وقال للقائد

— احضر الحبال وأتني برجل

فالتفت القائد بالفرقة فتقدم اليه بالحال جندي ضخم الهامة وعلى وجهه الصبوح تلوح سيماء الفرح والشجاعة لانه انتدب الى تضحية حياته لانقاذ اخوته ومد يديه الكبيرتين الى ازرار سترته الرسمية فحلها عن اكتافه بسرعة وبعد ان ربط وسطه بطرف الحبل الطويل انحنى مسلماً على المارشال ناي ورمى بنفسه الى فوهة الهاوية بدون مبالاة وابتدأت العساكر بتدلية الحبال

وبعد بضع دقائق توارى الشجاع وراء حجاب الظلام وهو ينادي — ارخوا الحبال !

فتقدم حينئذ احد شجعان الانكليز وطلب ان يدلوه مع الافرنسي فقال المارشال ناي

— ليس من الحكمة ارسال عدوين سوية في مهمة كهذه لانه من الممكن بل من المؤكد انهما يبتدآن بالعراك في اول مصادفة وعوضاً عن الحصول على اخبار الجند لا نحصل الا على جثتين لا فائدة منهما

فاطرق ولانكتون ساكتاً . وكانت الحبال تتدلى بسرعة حتى احس ممسكوها باضمحلال الثقل الذي كان يجذب بالحبال الى اسفل فحسبوا ان الجندي قد اوقف سيره صخور يتعثر بها فنادوا جميعهم بصوت واحد ما ترى!

فاجابهم الشجاع من وسط الهاوية بصوت قوي وصل اليهم ضعيفاً جداً

— لم ارَ شيئاً بعد ارخوا الحبال

وصارت الحبال تسقط في قلب الهاوية ببطء فلم يشك القواد بان الشجاع لم يكن يرى شيئاً بل كان يستدل بيديه على طريق لم تطأها ارجل بشرية . فنادوه ليعلموا ما جرى . واذ ذاك اندفع من الهاوية صوت ضعيف جداً كصدى كلام منقطع تردده جبال بعيدة — ارخوا الحبال ايضاً

فتدلت الحبال بحسب الطلب ولكنها بقيت تلوح في الهواء كأنها لا تحمل شيئاً فانقطع امل ولانكتون فالتفت باحد قواده وقال فتش على القسيس واحضره الى هنا . وبعد برهة مثل الكاهن المطلوب بين يدي ولانكتون فقدمه هذا للمارشال قائلاً

— هذا احد خدمة الدين وجدناه في الصباح على سفح الجبل فلنسله لعله يعرف منفذاً نقدر منه على تخليص رجالنا فقال ناي للكاهن

— اتتكلم الافرنسية يا ابي

فاجاب الكاهن بعلامة الايجاب محنياً رأسه

— بما انك من هذه النواحي يا ابي فلا بد انك تعرف الوهاد وطرقاتها

فقال نعم وسار ببطء الى حافة الهاوية ومدّ عنقه الطويل ليرى

وكانت الجبال تمر بصوت ابح على الصخور . ونادى رجل الهاوية — ارخوا الحبال ايضاً

فوصل ذلك الصوت الى آذان العسكر كنواح بعيد . وكان سمع الكاهن ثقيلا فلم يسمع ولم يعلم ما يجري فتراجع الى الوراء وعلامات الخوف بادية على سحنته المجعدة . فقال له احد القواد

ان شقاء عظيما حاق بنافي هذا الصباح كانت عساكرنا تتقلب في معترك هائل وقد اهتزت الارض بغتة تحت اقدامهم وفتحت فاها فتدحرجوا في هذه الهاوية

فقال ناي — اربعماية رجل من شجعاني سقطوا هنا

وقال ولانكتون — والف من شجعاني ابتلعتهم هذه الهاوية . ورفع قواد الجيش رؤوسهم منتظرين جواب الكاهن وآمالهم متعلقة بكلمة من فيه اما هذا فلم يحر جوابا بل سقط جاثياً على ركبتيه ووجه انظاره الى اعماق الهاوية وسالت الدموع من عينيه فبات جاثياً بخشوع ضاماً يديه الى صدره وشفتاه المرتجفتان تتمتمان بهدو صلاة الاموات

فقال احد الجنود — خاب الامل وانقطع الرجاء

فارتجف ناي وامرّ يده على جبينه ماسحاً قطرات عرق بارد كانت تكلله وما برح الجنود يدلون الحبال حتى بلغ ما دخل منها في الهاوية اربعماية متر ولم يبق لديهم منها سوى عشرة امتار . وحينئذ خرجت هذه الكلمات من ظلام الهاوية الى نور النهار

« ابتدأت ان اسمع ... ارخوا الحبال »

فارخوا بعض امتار وبات الجمع صامتاً ينتظر النتيجة

﴿ فنادى صوت الهاوية ﴾

— اسمعوا صراخ الرجال ... صراخ قتال بعيد ... نداء الويل ... ارخوا الحبال ايضاً

فدلى الرجال ما بقي لديهم من الحبال وربطوا اطرافها بالصخور وانتظروا فقال الصوت

= غير ممكن ان اتقدم ايضاً

وعصفت الريح وسط الهاوية فانقطع الصوت وقام مقامه دوي الخلاء صوت العدم

فتقدم المارشال ناي الى الحافة ونادى باعلى صوته — ايها الشجاع ما تسمع ؟

فساد السكوت والرعب ملأ القلوب ورفع الكاهن يده وبارك فانكشفت الرؤوس بخشوع وجثا العسكر ليصلي منتظراً الصوت الاخير

وكان الشجاع المدلى باطراف الحبال قد جمد دمه البرد فلم يعد يقوى على النداء ولكنه صاح بصوت يزيده اقتراب فنائه رهبة فقال

— اسمعهم ينادون : « ليحي الامبراطور »